

الإسلام والمدنية الحديثة (*)

هل يتفقان ؟

اني اخترت موضوع البحث في الإسلام لأول مرة في مؤتمر أفريقية الشمالية لسيين : الأول ان المسألة الإسلامية هي مركز دائرة جميع المسائل في أفريقية الشمالية وذلك لان هذه المسألة مهمة في أفريقية أكثر منها في البلاد الإسلامية الأخرى اذ كان بين الإسلام والنصرانية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط نضال قديم وما زال أثره باقيا في القلوب . والثاني لأننا نحن الفرنسيين نعيش مع المسلمين في تونس والجزائر ونحن مضطرون الى الاختلاط بأهلها لارتباطنا معهم بمصالح دائمة

ان الهند الانكليزية فيها زهاء أربعين مليونا من المسلمين ولكن الانكليز لا يخلطون بهم اختلاطاً دائماً وفي مصر وهي أكثر بلاد الإسلام مدنية لا يخلط الانكليز كذلك بأهلها اختلاطاً يفضي الى الاستعمار الحقيقي والأوروبيون لا يقطنون سوى المدن الكبيرة وليس لهم من العلاقات مع سكان القرى ما للمستعمرين منا مع النصر الوطني في مستعمراتنا الأفريقية على ان المسألة الإسلامية يجب أن تقدم على غيرها من المسائل الأخرى التي يبحث فيها المؤتمر بقطع النظر عما تقدم لا يكون الاستعمار موطن الأركان قائم البنيان الا اذا أمكننا الوصول الى طريقة نجعلنا على صفاء ووداد مع أهل الدين الإسلامي الذي يربط الأمم المختلفة الأجناس والمشارب المنتشرة بين المحيط الاطلسي وخليج قابس

(*) خطبة لموسيو رينيه ميليه القاها في مؤتمر أفريقية الشمالية المنعقد في باريس من عهد قريب ونشرت في المجلة الاستعمارية الفرنسية وترجمتها بعض الجرائد المصرية بالعربية فأرنا تلخيصها لقراء المنار لما فيها من الحقائق والانصاف

ويجب ان نضيف الى هذا الاعتبار اعتبارا آخر أكبر منه شأنًا وأهم فائدة وهو أن ظنون الغربيين بالام الأخرى قد بدأت تتغير تماما وأذكرياتي كنت أسمع وانافذ ان الام الآسيوية لا تقوم لها قائمة وانها ستبقى رازحة تحت اجراء الأنحطاط والجهود ، وفي الغالب كانوا يلمعون التهمتين معا بها على ما فيها من التناقض اذ حينما توجد حركة تأخر لا بد وأن تتبها حركة تقدم . وقد كان من الامور التي لا نزاع فيها ان الصين أمة جامدة وان اليابان أمة ليس لها الا مدينة سطحية وان الهند لا يمكن أن تصلح شؤونها وكانوا يتهمون الاسلام بهذه التهم نفسها وان الذين هم في سن موافقة يذكرون ان الغربيين كانوا يرددون نظرية مؤداها ان المسلمين في جهود تام بسبب اعتقادهم في التوكل والقضاء واقدر ولس في حاجة الى القول بأن هذه التهم التي كانت تجسها كبرياء الغربيين قديتين فسادها فان المدافع التي أطلقت في موكن دوت في أقاصي آسيا وأصبحت الام التي كنا حكننا عليها بالموت والجهود يقظة نامية سواء كانت في الصين أو الهند الصينية أو الهند الانكليزية أو في ايران التي أخذ أهلها يطلبون دستورا وهاهي الاستانة ظهرت فيها حركة أهلية أدهشت العالم بأجمعه وما كان يخطر ببال طلبة مدرسة العلوم السياسية انه سيطرأ تغيير على برنامج دراستهم وهو الامر الذي أصبح لا بد منه الآن بعد ان تغيرت المسألة الشرقية ودخلت في طور جديد

وانا ازاء هذا الانقلاب الذي حصل لا نجد بدا من التساؤل عن الجهود الذي وصفوا به الاسلام اذ قد يكون شيئا بهمة الجول التي ألصقوها باليابان وما لبثت أن اضمحلت وظهر بطلانها ١١

واني لا أريد ان أذكر انتشار الاسلام لانه هو الدين الوحيد الذي ينتشر ويزداد أهله بسرعة في آسيا وافريقية على حين ان الاديان الأخرى بقيت واقفة عند حد محدود لا تتجاوزها البتة وقد أصبحت هذه المسألة لا نزاع فيها ولكن ماذا يقولون اذا أثبت لكم ان الاسلام شرع بطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها ومن ذلك انه أنشأ بؤته الذاتية وبالمهندسين المسلمين ذلك الخط الحديدي العظيم المحتدين دمشق

والمدينة المنورة الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلومتر!! وماذا يقول اليوم فطاحل الفلاسفة الذين قالوا ان أهل الاسلام مصابون بنوع مخصوص من أنواع مرض النوم ؟ ماذا يقولون الآن اذا علموا أن المسلمين تبرعوا بمقدار ثمانين مليوناً من الفرنكات مما أنفق عليه ؟

وان فرنسا فائدة كبرى بالاشتراك في هذا البحث العظيم فاذا كانت مدينة الاسلام هي تلك المدينة الجامدة المزعومة فيجب علينا ان نعالج هؤلاء المسلمين الذين نحن مرتبطون بهم بسياسة الضغط والشدة خلافا لما جيلنا عليه من انعطافنا لجميع الناس ازاء ما يبدو من حركاتهم أو يظهر فيهم من روح الحروب الصليبية التي بقيت بكيفية غريبة كامنة في صدور المسلمين حتى البعدين عن الدين منهم (؟) ومن الامور المدهشة أن الانسان قد يلاقي في فرنسا أناسا مازالوا محافظين على بقية من أوهام الحروب الصليبية ضد المسلمين

وأما إذا اعتقدنا في الحركات التي تجلت في كل مكان عكس ذلك فمن الواجب أن نمد أيدينا بحرية الى شعوبنا الاسلامية ونقودها معنا في طريق المدنية وهذه النقطة هي التي أريد أن أبحث فيها اليوم أمامكم ان امامنا طرقا لحل هذه المسألة الكبرى

فمنها الطريقة التي يمكنني أن أسميها الطريقة المباشرة وهي أن نفتح القرآن وكتب السنة ونستخلص منها النصوص التي تثبت أن المؤمنين الصادقين في كل عصر يهشون للعلوم ويقبضون عليها . منذ عهد غير بعيد جاءني كتاب من أحد المسلمين الجزائريين وهو السيد عبد السلام بن شعيب فرأيت فيه بعض تلك النصوص مثل « الحكمة ضالة المؤمن يثقلها انى وجدها » و « اطلبوا العلم ولو بالصين » وغير ذلك من الآيات والاحاديث والآثار

هذه الطريقة تصالح لاقتناع قومنا بان الاسلام يحث على العلم ولكن هناك عقبتين تقفان في سبيل نجاحها (الاولى) اني وزملائي الذين يدافعون عن الاسلام اسنا بصحة في تفسير الآيات والاحاديث واستخلاص المبادئ الاسلامية الصحيحة

منها (والثانية) ان المتدينين لا يتبعون دائما ما ترمي اليه نصوص دينهم بل كثيرا ما يجيدون عنها وياخذون بأقوال الفقهاء والشراح الذين يذهبون في أقوالهم كل مذهب فلا يكفي أن ينص الدين على شرف العلم ليكون أبناء ذلك الدين راغبين فيه مقبلين على تحصيله

وهناك طريقة أخرى وهي الطريقة التاريخية :

في اعتقادي أن خطأ المشتغلين منا بالاسلام هو في درس هذا الدين مستقلا عن الظروف التي كانت محيطة بظهوره فلا عرفنا كيف كانت حال العالم حين ظهر لوقفنا على أسباب انتشاره المدهش

ان الذي ساعد الاسلام على الانتشار هو ماقرره الامبراطور يزنانيون في القرن الثالث للمسيح من جعل المسيحية دين الحكومة وقد جر هذا القرار على الدولة البيزنطية من المشاكل أعقدها .

واقدم كان الدين الروماني القديم دين حكومة أيضا ولكنه كان ديناً يتبع الديانات الأخرى بمعنى ان روما كانت كلما تغلبت على أمة جعلت آلهتها آلهة لروما . وبخلاف ذلك كانت الحال في بزنطية ومنذ اليوم الذي استخدم فيه الامبراطور السيف لنشر الدين انفتح في وجه الدولة البيزنطية باب الآلام والموم ولو أعدتم النظر في تاريخ القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح لوجدتم الامبراطورة متوفرين على توحيد الدين وموجهين اليه كل قوى الدولة وفي ذلك كان تضعف ملكهم وانقراضه . فكم أهرقت دماء في سبيل كل عقيدة من عقائد المسيحية وكم من مقاطعة ضيعها الامبراطور على أثر كل قرار كان يصدر من مجمع « نيقية » !!

وان مسألة طبيعة المسيح أو مسألة الاقانيم التي نعتقدها الآن بكل سكونة واطمئنان قد سالت من أجلها دماء غزيرة ونشأت من الجدال فيها حروب هائلة — هذا وإنه قد بلغ من عناية الحكومة بنشر الدين انها غفلت عن احتياجاتها الأولية فاحترمت الصوامع ورفعت عن أهالي الخدمة العسكرية وعاقبتهم من دفع الضرائب

فلم يكدر يدخل القرن السادس حتى كانت الدولة في غاية الضعف ومثلت جوانبها بالخلافت الدينية

إذا فما هو الاسلام ؟ الاسلام دين جاء بخلاف كل ذلك فقد احتاض عن تعدد درجات الادارة بسطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد في كل الامور ولم يقرر شيئاً من وساطة القسيسين بين الآلهة والشعب ولم يسن نظام الصوامع وقضى على عادة العزوبة التي كانت متبعة مستفيضة بين المسيحيين في ذلك العصر وقضى أيضاً على عادة التنسك والخروج من الدنيا فقرر الاشتغال بالدنيا والآخرة مما وبالجملة فقد أتى الاسلام بنظام مضاد للنظام المسيحي في ذلك العهد ملائم لحاجات الناس وهذا هو سر غلبته على الدين المسيحي

ثم ان الاسلام ارجع الدين الى حاله الطبيعية ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية بل قال بكل وضوح « لا إله إلا الله » وبذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذي قسم الدول الاوربية والذي جعل أهل مصر وآسيا الصغرى في حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية

وكيف لا تميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يظنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم في الدين لا يطلبون منهم الا ضريبة يستعينون بها على اصلاح شؤونهم وشؤون الدولة الاسلامية ولقد بلغ الامر بأحد الولاة الى تسيط دخول الذميين في الاسلام بدلا من أن يرغبهم فيه أو يكرههم عليه لان اسلامهم يقلل من دخل بيت المال

ومن هذا الوصف التاريخي الموجز يمكنكم ان تتصوروا كيف تفضت بنايع الحياة في الدولة البيزنطية واتم تعرفون كيف انتشرت عادة التنسك والتعسف مع انها لم تقلل من فساد الاخلاق — ويمكنكم ان تدركوا كيف ان التبعة الآسيوية اعتبرت ظهور الاسلام ايدينا بنجاتهم وسعادتهم .

وأذكر أني أيام كنت أدرس تاريخ الاسلام كان الأساتذة يقررون سرعة انتشاره من دون ايقافنا على أسبابه، وغاية ما كانوا يذكرونه هو ان طبيعة العرب طبيعة

(المراجع ١١ م ١١) الإسلام . ارشاده الى البحث . نبوغ العلماء من اهل ٨٢٣

حرية وان خيولهم جيدة تكاد تسبق ظلالها !! مع ان الحقيقة ان الفتوحات العربية كانت على البغال الا ان العرب أتوا بعقيدة سهلة التناول لا تثقل الجندي المجاهد ثم انهم فوق ذلك أتوا متشبعين بروح التسامح وذلك هو سر الانقلاب العظيم الذي أعطاهم ملك آسيا وأفريقية ونصف أسبانيا :

وإذا كان ذلك كذلك أدركتم ما تبع هذه النهضة من الاعمال الجليلة .

أتى العرب بعقائد سهلة ملائمة للفطرة وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والآداب باجتهادهم الذي عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم واني ليخيل إلي انه كانت على أبصار مسيحي القرون الوسطى غشاوة من تنسك منهم من إدراك الأشياء على حقائقها

وقد جاء العرب في الوقت نفسه بمبدأ في البحث جديد مبدأ يتفرع عن الدين

نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث .

ثم هل تعرفون بأي كتاب من كتب العهد العتيق كان يتعلق المسلمون ؟

كان اهتمامهم بكتاب ارسطو أكثر منه بخيالات أفلاطون ، نعم كان كل اهتمامهم بكتاب ذلك الحكيم المدقق وواضع أساس العلم في الحقيقة ثم انهم مالوا الى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء وقد وجد فيهم كبار الاطباء — ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء الجيدون الذين قالوا شعرا اذا وصفناه بانه أرضي فذلك لانه قريب من العقول يفذيها وينعمها وانه أفضل من خيالات شعراء القرون الوسطى بألف مرة فأين هذه الحياة من تحبب الغرب المسيحي في تماثله وأوهامه وانزوائه !!

هذا واني لا أطيل القول في الشيء المشهور من أن الحضارة العربية بلغت شأوا عظيما في بغداد وقرطبة وانما يسرني ان أبحث في أسباب هذه المدنية الراقية وحدودها

واليكم أول ما يتبادر الى ذهن الباحث التزيه وهو ان الإسلام أعطى أشهى ثمرة

لما سرت اليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب .

ففي بغداد استفاد الاسلام قوته السياسية من تلك المدينة الفارسية التي قاومت عوادي الزمان والتي نشأ فيها من الفلاسفة والعلماء عدد عظيم وكذلك في اسبانيا حصل تمازج بين الروح الاسلامية والروح اللاتينية وسأين لكم الآن ان اقتراق هاتين الروحين كان وبالا عليها ما

كان الباحثون في الاسلام يعتقدون ان الدين نظام كامل لا يتبدل ولا يتغير فيكفي ان يدرس مستقلا عن كل عامل اجنبي عنه للوقوف على قيمته واكن الحقيقة ان كل دين يستمد جل قوته من العوامل الاجنبية التي كان له معها شأن ومن مقدار قبول الدين نفسه لتأثير هذه العوامل . وان لي كلمة على دولة الاسلام في الاندلس التي فتحها مسلمو افريقية الشمالية : انظروا الى قرطبة تلك المدينة التي سقطت الآن الى حضيض الهوان والفقر وانظروا اليها لما كانت في عهد الدولة العربية عامرة آهلة يبلغ عدد سكانها زهاء خمس مئة ألف نسمة وعدد مساجدها ثلاثة آلاف وعدد منازلها مئة وثلاثة عشر ألفا عدا ثلاث مئة من الحمامات العامة ثم اذا أردتم أن تقفوا على اخلاق أمراء المسلمين في تلك الدولة ودرجة آدابهم ورقبيتهم فاليكم صورة الوصية التي تركها عبد الرحمن الاول أحد خلفاء قرطبة لابنه وقد اخترتها عفواً من بين المستندات الكثيرة التي تتعلق بتاريخ الاسلام في اسبانيا:

«اعلم يا بني ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء فأحمد الله على ان وهبنا ملك الاندلس ، فعليك بتقوى الله وطاعته ، واعمل خيراً مع الناس كافة وخصوصاً أولئك الذين وكل الله شؤونهم اليك ، وساو في حكمك وقضائك بين الفقراء والاعنياء ولا تولّ أمور الناس الا من عرفت فيهم الحكمة والخبرة ، وعامل جنودك بالشدّة واللين معا ليكونوا حماة الدولة لا عوناً للظلمة من الحكام . وواجب عليك أن تظلّ الزراع بحمايتك ، وأن تودهم بموتك ، لانهم مورد حياتنا واحرص على محبة الرعية لك واملقهم بك . . الخ

اني أود أيها السادة أن أسمع مثلاً هذه الوصية من رئيس وزارتنا في زمننا هذا ولا أفكر في وصف ما كان يجري في بلادنا في القرن العاشر أي العصر الذي

قال فيه الخليفة عبد الرحمن هذا القول لاني أخشى أن تهوئي بعمل مقارنة تشوّه سمعة العالم المسيحي وتظهره بمظهر مخجل

لبثت هذه المدينة التي أتت بالدهشات والتي لا يزال الناس في حيرة من أمرها زاهية زاهرة ثمان مئة سنة . فتح العرب الأندلس في سنة أو سنتين ثم لم تنتزع من أيديهم إلا بعد ثمانية قرون من حكمهم . أليس ذلك مما يدعو الى العجب " وإذا أضفنا الى هذه المدة المئتين أو الثلاث مئة سنة التي اتسعت فيها دولة الأتراك وبلغت شأواً بعيداً من العظمة الحربية علمنا ان الدول الإسلامية ظلت صاحبة السيادة على العالم مدة ألف سنة تقريباً وهي مدة تناهز عمر الدولتين اليونانية والرومانية

ولكن ثمة أمراً يرتبط بالموضوع الذي نبحث فيه الآن (موضوع التوفيق بين المسلمين) وهو نتائج ماجرى في القسطنطينية وما جاورها من شواطئ البحر الأبيض وفي الأندلس من تعارف الإسلام والمسيحية وتألفها

ابتداءً هذا التعارف في الأندلس بعد فترة قصيرة من الفتح الإسلامي ولا يفوتكم أن ما يرويه القصاصون من الجهاد بين النصارى والمسلمين في إسبانيا لا يطابق الحقيقة في جملة لأنهم يمثلون « السيد » في قصة الفبا (كورنيل) بطلاً مقدماً أعده قومه لمجاهدة الكفار (يريد المسلمين) في حين ان الحقيقة هي ان هذا البطل انما قدم نفسه لخدمة المسلمين وحارب في صفوفهم ومات وهو بين المسلمين يحارب اعداءهم . إن المستقرئ لاطوار العلاقات بين النصارى وأمراء الإسلام في الأندلس يعلم ان الأمراء المسيحيين كانوا يستشيرون اطباء المسلمين اذا أصابهم أو أصاب أبناءهم مرض وكثيراً ما كانوا يفتدون الى قصور الخلفاء و يقيمون بها حتى يتم شفاؤهم فترون أيها السادة ان هذه العادات تناقض بة ما يرجف به القصاصون من خرافة الحرب الصليبية الخالدة بين النصارى والمسلمين

لقد لزم مسلمو الأندلس التسامح مع النصارى ومودتهم حتى في الدور الذي

٨٢٦ الاسلام في الاندلس . تسامحه . تأثيره في أوروبا (المارچ ١١ م ١١)

اضطحت فيه دولتهم وأخذاء المسيحيين يتقصونها من أطرافها فإذا اتيج لاحدكم أن يتجول في أنحاء اسبانيا الآن يمكنه أن يقف على آثار العرب هناك وعلى بقايا ما شيده في دور اضطحالمهم ليستخلص من دراسة تلك الآثار ان الاندلس كانت بلاد غنى ورفاهة حتى في دور لتضعف سلطان المسلمين ويدهش من أنها كانت في ذلك العهد أيضا بلاد تسامح وتسامح .

في هذا العهد كانت دولة غرناطة زهرة أوروبا وكان كل من يريدون أن يستنشقوا نسيم الحرية المدنية يذهبون الى تلك البلاد فارين من البلاد التي كان يحكمها الامراء المسيحيون وهي مهد القسوة والظلم هناك يعاقب الامراء من بأسروهم في ساحة الحرب بانفاسهم الى كلاب مفترسة تمزق أجسامهم إزباً إزباً .

لم يكن ذلك مقصورا على الاندلس بل كان بين المسلمين والمسيحيين علاقات متينة محكمة لبثت من انتهاء الحروب الصليبية الى فتح القسطنطينية . فانكم تعلمون أيها السادة ان عظمة البندقية وجنوه في العصور الوسطى راجعة الى تجارها مع الشرق وتعلمون ما استفدناه من احتكاكنا بالمسلمين اذ ذاك فقد كان لا كثير من البيوت التجارية في فلسطين وسوريا واليونان ولا يخفى كم ان من أسعدهم الحظ من الغربيين بازدياد احتكاكهم بالمسلمين كان يسري اليهم كثير من عاداتهم وأخلاقهم الشريفة حتى فقت الكنيسة الكاثوليكية على أبنائها من سريان روح الاسلام اليهم ونظرت بين الخوف الى تنازع المبادئ الاسلامية والمسيحية وخصوصا الى مبدأ التسامح الذي كان آفهم وعدوهم اللدود !

هذا وان هناك حقيقة يجب أن ننبينا وهو انه في هذه الفترة التي تعارف فيها المسلمون والمسيحيون أي من انتهاء الحرب الصليبية الى فتح القسطنطينية في هذه الفترة التي تعارف فيها المدينتان المسيحية والاسلامية - كان الاسلام هو العنصر المؤثر والعالم الاوربي هو العنصر المتأثر ، فكانت أوروبا تجلب من المشرق كل ما كانت تحتاج اليه من المصنوعات والمنسوجات وضروب الرفاهة حتى لم يعد في امكانها ان تدفع ثمن كل ما تشتره ، ومن ذلك تعلمون ان سبب اندفاع امراء أوروبا في

سبيل اقتناء الذهب بأية وسيلة راجع في الاكثر الى قهر أوربا واعوازاها من
الحاصلات التي تبادلها مع تجار المشرق

هذا من جهة الماديات وأما من جهة العلوم والآداب فان أوربا لبثت ثلاث

مئة سنة تقتبسها من الاسلام وكانت المدنية الغربية تبجي ثمارها اليانعة

ولكن حادثين عظيمين أوقفنا سير ذلك التيار الكهر بأبي الذي كان يحيط

بالبحر الابيض المتوسط وهما : استيلاء الأتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣

واستيلاء الاسبانيين على غرناطة سنة ١٤٩٢

فمن ذلك اليوم قامت حرب الأحقاد الدينية حتى انك ترى آثار التمصب

الاسباني في تاريخ عرب الاندلس كالتقطعة السوداء في الصحيفة البيضاء الناصعة

ولاسيا في ذلك الوقت الذي حالف فيه الأمير يوسف جماعة القسيسين . وفي

رأبي ان تمصبا الاسبانيين كان أفضح وأقل عنذراً لانه جاء في زمن كانت القوة والعدد

لهم . وان الاستيلاء على غرناطة الذي يقتخر به الاسبانيون والذي يحسبونه بجمل

عصر فرديناند وايزابلا لم يكن في الحقيقة الاعمال وحشياً بربرياً لم أعهد في التاريخ

أقبح منه ، خصوصاً وان امارة غرناطة لم تكن لتهدد أسبانيا في شيء لاستيلائها على

ما حوالها من الاراضي والمدن ، وانما كانت غرناطة عروس أسبانيا وزينتها - ولا

بد ان يكون الا كليروس الاسباني أو الطليطلي رأى ان يحقق هذا الجمال ويزيل

المدنية البديعة خدعة للمسيحية والمسيحية بريته منه .

والأدهى من ذلك ان المسيحيين كانوا أعطوا وعودا قبل الدخول ولكنهم

أخلفوها وجمعوا الكتب الجليلة وأحرقوها قتلذوا بمنظرها وظنوا أنهم بمسلمهم هذا

قد قضاوا على دين المسلمين وآدابهم . ثم إنهم أمروا المسلمين أن يدخلوا في المسيحية

كافة ولما لم يجابوا الى طلبهم جمعهم زمرا زمرا وحبسهم في غرف واسعة ورشومهم

بالماء اشارة إلى تعميدهم وتنصيرهم ا - - ثم لما رأوا أن هؤلاء المسلمين المنتصرين

لا يزالون يفتنون طمعوا في أموالهم وصاروا يظلمونهم من آتٍ لآخر . ومن ذلك

ما وصل الينا من أوامر فيليب الثاني التي يحرم عليهم فيها لبس الثياب العربية واستعمال

اللغة العربية والاستحمام في الحمامات العامة والسبب في هذا الامر الاخير ان الكنيسة الاسبانية كانت ترى الاستحمام جرما لا يغفر !!!

وقد زرت غرناطة ورأيت آثار تلك الحمامات المحيطة البناء البديعة النقوش التي أمر فيليب الثاني بتهديمها حقدا منه على المسلمين ومطابوعة لاعتقاد الكنيسة الاسبانية انها مأوى الشياطين !!! . في هذه الحمامات كان العرب ينتظفون وبها يتطيبون مع اننا نلاقي مصاعب عظيمة في تعويد بني وطننا على عادة الاستحمام النافع وانكم تعلمون كيف طرد المسلمون المحجرون على التنصر من وطنهم سنة ١٦١٠ ثم كيف خانهم أصحاب السفن فألقوا متاعهم في البحر وأنزلوهم في أرض لا أنيس بها .

وبذلك انقلب الاسلام المتمدين بربريا نعم لما انفرد الاسلام بنفسه بينما كانت أوروبا تخطو خطوات واسعة وترقى درجات عالية أصبح كاشجرات الزيتون المشوهة التي نراها في جبال تونس فهي غليظة الجرع ولكنها تثمر ثمارا غير جيدة هذا ولا تظنوا ان أوروبا لم تتأثر من مفارقة المدينة الاسلامية فانها بدأت تشعر اليوم بالنقص — ثم هل نحن في حاجة إلى بيان ما وصلت اليه أوروبا من الرقي وما انعكس من تقدمها على البلاد الاجنبية ؟

الا أنها في علاقاتها مع الاجانب عنها كانت فظة غليظة القلب ويكفي أن أذكركم بفظائع دخول الاسبانيين أمريكا لتبينوا بأنفسكم قيمة المسيحي أيام طرد العرب من أسبانيا ولقد ضاع رشد الاسباني حتى لم يعد يدرك معنى الحياة فيقود الأمم الاجنبية .

ولو أنكم تطالعون تاريخ الاستعمار في القرنين الاخيرين لتمثلت لكم روح الظلم والعدوان ولرأيتم ان اتساع سلطة أوروبا وانتشار نفوذها إنما كان باسترقاق السود وتمذيبهم ولرأيتم ان غرضها إنما كان جمع المال لا تخرج من اتيان الشر والاعتساف كل ذلك جاءها من مفارقة الاسلام لها واقترافه عنها — ولقد بلغ من غلوها في الظلم والاعتساف أنها رأت في بعض الاحياء أنه لا يستقيم لها بدالا اذا استأصلت أعلاه وأهلكتهم وهكذا فعلت انكثرا في أمريكا

نعم ان براعة الاوربيين قد ظهرت في المسائل المادية فترقت العلوم والفنون والصناعات بين ايديهم . ثم انهم تحملوا المشاق وقاموا بالاعمال الجسام ولكنهم عجزوا في كل وقت عن أن يفقهوا مدنية أجنبية عن مدينتهم وأن يفقوا على كنه عقول ليست من عقول اخوانهم في الجنس وقد أدركوا اليوم ضلالهم في خطتهم الاولى وشرعوا بتلمسوت خطة جديدة غايتها تقدير نفوس الاهلين الاصليين ومعرفة صادقة

فهذا التفسير التاريخي كاف لا يقاومكم على أسباب ارتقاء الاسلام تارة وأسباب أفول نجمه تارة .

اني أيها السادة أتبع في بحثي هذا الطريقة التاريخية فلا أقصره على الوجهين الدينية والفلسفية لانا اذا قصرنا إبحاثنا على ذلك انسدادا أمامنا مجال البحث وعجزنا عن الوصول إلى حقائق الأشياء فنجدير بنا اذن أن نتبع الادوار التاريخية التي مر بها الدين لتعرف طبيعته واستعداده للارتقاء

ان لنا أن نحكم على بعض الاجناس من البشر بانها لا تقبل الارتقاء والمدنية ولكن اذا رأينا أمة كان لها في خلال العصور مدنية زاهية زاهرة فمن الظلم أن نحكم على تلك الأمة بالسقوط الابدي و باستحالة يقظتها وارتقائها لان الأمة التي أمكنها أن تهض في وقت ما يمكنها أن تعيد عهد نهضتها في المستقبل

يقولون ان عقيدة القضاء والقدر هي السبب في استحالة ارتقاء المسلمين ويهمني أن أتناول في بحثي هذه المسألة التي طال عليها القدم والتي قال العلماء وكتبوا فيها كثيرا . أليس فيما يقولونه عن هذه العقيدة شيء صحيح ؟ وما هو تأثير تلك العقيدة التي يفهم الناس منها انها تحمل صاحبها على الاستسلام للحوادث من غير ان يبدي مقاومة ما ؟

الا ان مبدأ القضاء والقدر لم يختص به الاسلام بل قرره المسيحية بصفة اوضح وأجلى فاذا قلنا ان سبب انحطاط المسلمين تقرير دينهم لهذا المبدأ فاذا تقول عنه في المسيحية ؟

ان لكم ان تسألوني لماذا لم يؤثر هذا المبدأ في أبناء المسيحية واني أبدأ الجواب بقولي ان هذا المبدأ مبدأ الاستسلام للحوادث قد كان له أثر فعال في حياة المسيحيين فترة من الزمن ولكني أجب عن هذا السؤال متبعا الطريقة التاريخية التي توخيتها في هذا البحث وهي ان كل دين لا يثمر ولا تبدو نتائجه من نفسه بل لا تظهر قيمته الا بعد ان يتحلله شعب من الشعوب

فالمسيحية ظهرت في ربوع الشام تلك البلاد الغنية الجميلة ولكن انتحلها اقوام أشداء بعيدون عن طور الحضارة في بلاد ذات هواء قاس تحدو بأهلها الى اجهاد أنفسهم فلم يأخذوا من المسيحية الا ما يلائم طبائعهم ويتفق مع اخلاقهم الشديدة، وكذلك كان الامر في الاسلام إذ لم يعرف المسلمون الاولون الاستسلام للحوادث، بل كانوا لا يتركون من يعتدي عليهم من غير أن يثاروا منه لانفسهم وتلك كانت حالهم في زمن الفتوحات فلما سرى اليهم الضعف والانحلال أصبحوا قوما جبريين يتركون المصائب تنزل بهم وتعمل فيهم ولا يقدرن على الخلاص منها مكفين بالتسلي وقولهم « كل ذلك كان في الكتاب مسطورا » فالمبادئ الدينية تفسرها الامم بحسب ما توحيه اليها طبائعها وأخلاقها فتأخذ اشكالا متباينة ولذلك تكون في عصر ما سببا في ارتفاع الامة وفي عصر آخر عاملا من عوامل انحطاطها

أفل نجم المدينة الاسلامية بعد ما أثمرت واينعت فترة طويلة من الزمن ولكن هذه المدينة تكفيها نعمة من نسيم الحياة الجديدة لتسترجع جمالها وعظمتها وجدتها

أيها السادة: اذا كان الاسلام قد أخطأ فخطؤه في تلك السذاجة التي اخص بها من دون الاديان والتي لم تأت على ما كان يقصد منها . لست ادري ان كان لنا أن نقول عن تلك الميزة انها خطأ فقد كانت في العصور الوسطى نعمة على المسلمين الا انها انقلبت ضررا فيما بعد

ان الاسلام لم يتوسع في مبادئه وقواعده ولم يحلها تحليلا يتناول أصول الاشياء وفروعها سواء كان ذلك في دائرة الفكر أو في دائرة العمل . انظروا مثلا الى نظام

الخلافة في صدر الاسلام : كان الخلفاء يقومون باعباء الخلافة كلها أو يسندونها كلها الى عمالم في الولايات فلم يكونوا متبعين قاعدة تقسيم العمل في ادارة شؤن الدولة كما هي الحال في الممالك الحديثة بل كان الامير أو القائد البعيد عن رئيسه ينوب عنه في جميع مظاهر سلطته وهو نظام كامل في عهد الفتوحات والحروب ولكنه مستحيل اذا جاء طور الحضارة ونشبت الاعمال فلا يعود في امكان فرد واحد ان يمثل السلطة العليا التي أنابته في فروعها كافة

وإذا أردتم ان تفقوا على اضرار هذا النظام فانظروا الى الطريقة المتبعة الآن في مراكز جباية الاموال والضرائب تجدوا ان وظيفة الجباية أشق الوظائف وأصعبها فان قائد الجند هو الموكل بالجباية ولا يمثل السلطان الا بقيادته للجيش ولذلك لا يمكنه ان يجبي الاموال الا اذا سار بجيشه نحو القبائل فيصادف كثيرا من المشاق والمتاعب في سبيل القيام بوظيفة تقوم بها نحن على أسهل الطرق لما لدينا من مصالح منتظمة تقيدها الحسابات فلا يحدث في الجباية ارتباك وتعقيد البتة

إني أذكر ان سلطان مرا كش السابق قضى حياته في الحروب الداخلية فضاها على ظهر جواده متقلًا من قبيلة الى أخرى كل ذلك ليصل الى جباية الضرائب في حين ان الذين يقومون بهذه الوظيفة في بلادنا مثلاً هم جباة من آحاد الناس يؤدونها وهم بمنجاة من التعب والنصب

فبالطرق النظامية التي تتبعها لأحتاج في جباية الضرائب الى ازهاق الارواح بل يكفي ان تتبع الوسائل النظامية التي تكفل القوة العامة بحمايتها وتحقيق غايتها هذا هو خطأ الاسلام في دائرة العمل على أن هذا الخطأ — ان صح ان نسميه كذلك — ليس مما لا يمكن تداركه فان تلك الصبغة العامة اللينة التي اتصفت بها مبادئ الاسلام هي التي جعلته يقبل ضروب المدنية ولا ينافيها بل يقابلها بصدر رحيب ولذلك ترون المسلمين المستنيرين لا ينفرون من المنظمات التي أنبتتها مدينتنا بل ترونهم يقبلون عليها ولا يجحدون من دينهم حرجا في اتباعها أما في دائرة الفكر فينقص الاسلام أمر واحد لم يحرم منه في عهد عزه بل في

٨٣٢ الاسلام . حاجته الى توزيع العلوم . الجمعية الخلدونية (المارح ١١١١)

العصور الاخيرة وهي طريقة التحليل العلمي طريقة توزيع العلوم حتى يسهل على كل فريق ان يتبع فيما اتدب له وانه يحضرنى الآن مثال على ذلك :

كنت منذ عهد بعيد مشتغلا بالبحث عن حال المسلمين الفكرية وأدى بي البحث مرة الى محادثة بعض علماء المسجد الأكبر في تونس . اجتمعت معهم خفية لان المسلمين والفرنسيين كانوا لا ينظرون بعين الارتياح الى التقرب بين زعماء كل من الدينين فقلت لاحد اولئك العلماء :

« كيف تفسرون ان كلياتكم كانت زاوية زاهرة في العصور الوسطى وانها أمدت أهل أوروبا اذ ذاك بالعلوم والمعارف ثم اصبحنا الآن أعلى منكم كها في العلوم كافة — حاشا الدين — وسبقناكم في هذا الميدان بمراحل ؟

ان السبب الذي أراه هو انكم متبعون الآن نفس الطريقة التي كنا نتبعها في القرون الوسطى ، انكم لا تتبعون نظام التقسيم في العلوم وتخصيص كل فريق بفرع منها بل يعمل كل منكم معتقدا أن في امكانه تحصيل العلوم كلها ، أما نحن فقد وصلنا الى درجة راقية في العلوم باتباعنا طريقة تحليل العلوم وتوزيعها وكما اننا أمكنا أن نخرج من حالنا السابقة فيمكنكم أنتم أيضا أن تخرجوا من حالكم الحاضرة الى حال أرقى منها باتباعكم هذه الطريقة نفسها »

تقد شاهدت بنفسى أيها السادة أهل تونس يقبلون على العلوم الحديثة وآنت فيهم صفات ومواهب ساعدتهم على الارتقاء في هذا المضمار . وكان محادثي مع علماء تونس وترغبي لإيادهم في اتباع الطرق الحديثة لتحصيل العلوم دينية كانت أو غير دينية قد أثمرت وأتت بالنتيجة المتقاة لانها حركة اصلاحية ابتدأت في تونس وسيكون لها مستقبل كبير

أسست في حاضرة تلك البلاد جمعية بمساعي بعض التونسيين الثيرين دعوها الجمعية الخلدونية نسبة الى المؤرخ المغربي الشير عبد الرحمن بن خلدون وقد وجهت اهتمامي الى تأسيسها وأخذت أساعدها ورغبت رؤساءها في أن يقصروها على الأعضاء المسلمين وكان غرضي من ذلك ان أثبت درجة استعداد الاسلام لتلقي العلوم الحديثة وكفاءة المسلمين لتلقي اخوانهم ثمار هذه العلوم

ولقد سبقني الى هذا الموضوع الذي أخطب فيه الآن أحد علماء المسجد الأبر وأحد أعضاء هذه الجمعية فطفت يسرد الادلة على اتفاق الاسلام مع المدنية الحديثة وعلى مقتضى آرائه في هذا الموضوع رسمت الجمعية خطتها ولا تزال تسير بمقتضاها الى الآن

ولا يفوتني أن أذكر لكم الصعوبات التي يلاقها القائمون بالحركة الإصلاحية من أنصار القديم فإنه وإن كان أهل الرأي والبصيرة من المسلمين يرون اتفاق الاسلام مع فضائل المدن الغربي سهلاً فإن هناك فريقاً كبيراً يطعن على هذه الحركة ويحاربها . فكر أعضاء هذه الجمعية في تجنب الاندفاع في قلب نظام التعليم القديم فلم ينشئوا دار الجمعية في مسجد الزيتونة بل تركوا المسجد على نظامه وأقاموا بجواره هذه الدار . وإنما تركوا المسجد حتى لا يثيروا عليهم سخط الجمهور

حيث الجمعية وانتشر مبدؤها بالرغم عن المعاكسات التي اعترضتها في مبدأ أمرها لأن كل اصلاح لا بد وأن يلاقي في طوره الاول معارضة ولقد كثرت أعضاء هذه الجمعية وصار طلبه مسجد الزيتونة بعد أن يتلقوا العلوم فيه على الطرق التقليدية يقدون إلى دار هذه الجمعية فيستشيرون بما يلقي فيها من العلوم الحديثة وإن هذه الجمعية لا تزال في مهدها ولكن من المحقق أن سيكون لها في نهضة الاسلام يد طولى فيتحقق مبدأ القائلين : ان الاسلام لا ينافي المدنية .

بقيت مسألة جديدة بان نبحث فيها وهي ما يتخوفه بعضنا من قرب احداق خطر تيقظ المسلمين بنا . واني مبر لكم عن آرائي في هذه المسألة بالصراحة التي سمعتموها في جميع الققط التي تناولها بجثي اليوم

ان هناك أمراً يجب أن تقف على حقيقته وهو هل تقدر على ايقاف تيار هذه النهضة الاسلامية وهل في وسعنا أن نقضي عليها ؟

اعلموا أيها السادة ان هذه النهضة اذا قويت وكملت بعد أن كنا محاربين لها فلا بد أن تقلب علينا وتوجه ضدنا وتم على مالا نرضاه ولا يتفق مع صالحنا البتة

ليست نهضة الاسلام بالامر الهين وليست الجزائر وتونس هما البلدين اللذين
ينهض فيها الاسلام بل هناك مصر التي حدثكم عنها والتي خطت خطوة كبرى في
نهضتها وهناك كثير من البلاد الاخرى التي حي فيها الاسلام حياة جديدة
على ان هناك اعتبارا أشرف من هذا الذي ذكرته لكم يدعوننا الى أن
لا ننظر بين الكره والسخط الى يقظة المسلمين وهو ان هذه الحياة الجديدة التي
ابتدأ يسري روحها في العالم الاسلامي من شأنها أن تقرب بين العالمين المسيحي
والاسلامي وتوفق بين المدينتين الغربية والشرقية

يقول بعضهم : اذا كنا نفرض أن المسلمين يسبرون في طريق المدينة الغربية
سيرا حثيثا فلماذا نعتبر أن ستكون هناك مدينتان ولماذا لا تقف المدينة الاسلامية في
جسم المدينة الغربية مادام المسلمون يأخذون العلوم عنا ولان العلوم هي أساس كل
مدينة ؟ على اني لا أشارك أصحاب هذا الرأي في رأيهم لان العلم له دائرة محدودة
لا يتعداها وما وراء هذه الدائرة توجد أفكار ومعتقدات لها تأثير كبير في احوال
الشعوب وهذه المعتقدات هي دائرة الدين

ان الذين يقفون على الحركة العلمية في بلادنا يعتقدون أن العلم يعترف بوجود
دائرة مجهولة لا تزال بعيدة عن مداركه فقد ابتدأ الفلاسفة والعلماء يوضحون تلك
الحقيقة الثابتة وهي أن العلم مها انسحت دائرته فلا يزال أمامه عالم غامض ومهما
استجلى العلم من حقائق ذلك العالم فستظل دائرة المجهول أوسع بكثير من
دائرة العلوم .

انه لا يمكن للعلم أن يمحو سلطان الاديان على النفوس مادام عالم ما وراء المادة
مكتنفا بالمدهشات وعلى ذلك فلا أرى حدا لبقاء الدين الاسلامي ذلك الدين
الذي أتى بأحسن العقائد وأكثرها ملائمة للفطرة والذي سعد حظه بان امتد ظله
على ضفاف البحر الابيض تحت سماء صافية الاديوم لم تلبد بالقيوم كما تلبدت سماء
بلادنا في الزمن السالف فظل نوره متلالتا في تلك البلاد المتناثية الاطراف ولم
تقدر الحوادث على اطفاء ذلك النور الرباني الساطع

(المراجع ١١ م ١١) الاسلام . اقبال اهله على العلم . مبادئ حكوماته ٨٣٥

أيها السادة : ان مبدأ التفريق بين عالم المادة وعالم ما وراء الإادة قد تبينه المسلمون فجعلهم يقاومون على علومنا ولا يرون فيها ما يناقض دينهم المشهور بالتسامح ولا أريد أن أتخذ من التونسيين برهانا على ذلك خشية أن يقال فيهم انهم انما يتبعون الخطة التي نوحيا اليهم والتي تقصد منها إفراغهم في قالب فرنسي يتفق مع أغراضنا الاستعمارية . بل أقول لكم انظروا إلى الاتراك وكيف وقفوا بين الدين وجنسياتهم العثمانية فأظهروا بذلك ان الحكومة الاسلامية قابلة لمبدأ الجنسية وان مبدأ الدين فيها لا يمنعها من ان تصطبغ مبادئ حكوماتنا الحديثة

ان الحكومات الاسلامية لسعة مبادئها قابلة للتشكل باشكال مختلفة وهذا التشكل هو الكفيل بارتقائها . انذكرون أيها السادة ما قاله الاقدمون في المسيحية؟ قالوا انها اذا ارتبطت بشكل الحكومة الملكية ولم تتحول عنه كان في ذلك القضاء عليها وكذلك الحال في كل دين من الأديان فلو ان الاسلام أخذ شكل من اشكال الحكومات وظل باقيا عليه لا يمدل فيه ولا يغيره لآت موته أبدية وافضى ذلك الى ضرره وضررنا .

واسمحوا لي ايها السادة ان أختم كلامي بتذكيركم بتلك الكلمة التي قالها ماسيو جوناك حاكم الجزائر العام تلك الكلمة التي املتها الحكمة والدربة وهي : « ليس المقصود من الفتوحات مجرد الاحتفاظ بالبلاد بل هناك ما هو اسمى غرضا من ذلك وهو الاحتفاظ بالقلوب والارواح » .